

## تنويه

أصل هذا الكتاب رسالة المؤلف لنيل درجة التخصص (الماجستير) في الأدب والنقد بعنوان: "ابن جنّي ناقداً"، وقد نوقشت في كلية اللغة العربية بالمنصورة، يوم السبت 28 رجب 1418هـ، الموافق 29 نوفمبر 1997م، وقد تكونت لجنة المناقشة من كل من:

1- الأستاذ الدكتور/ محمد حامد شريف (مشرفاً)

2- الأستاذ الدكتور/ محمد رجب البيومي (مناقشاً)

3- الأستاذ الدكتور/ طه مصطفى أبو كريشة (مناقشاً)

وقد منح الباحث درجة التخصص (الماجستير) في الأدب والنقد، بتقدير: ممتاز.

وقد اعتمدت الدرجة العلميّة في مجلس الجامعة المنعقد بتاريخ 17 شوال 1418هـ، الموافق 14 فبراير 1998م.

## مُفْتَح

إلى ابن جني في مرقدہ المخضّر

هِيَ الصَّبَابَةُ فِي الْأَحْشَاءِ تُدْنِينَا  
وَتَزْرَعُ الْحُبَّ مُخْضَرًا بِوَادِينَا  
لِيَكْتُبَ الْوَحْيُ سِرًّا مِنْ تَنَاجِينَا  
حَتَّى نَذُوقَ كُتُوسَ الْحُبِّ مِنْ فِينَا  
يُسَابِقُ الشَّمْسُ، لِلْعُلْيَاءِ يَحْدُونَا  
فَذَابَ شَهْدًا عَلَى نَعْرِ الْمُحِبِّينَا  
بَدَائِعَ الزَّهْرِ مِنْ مَعْنَى قَوَائِينَا  
حَتَّى افْتَرَعْتَ مِنَ الْأَبْكَارِ سَبْعِينَا  
كَيْمَا يُضَاحِكُ نُورَ الشَّعْرِ قَارِبِنَا  
تَطِيرُ بِالْقَوْلِ فِي أَفْقِ الْمُجَلِّينَا  
سَنَائِلَ الْوَحْيِ أَطْيَافًا تُحْيِينَا  
فَيْضُ الْبَلَغَةِ يَغْتَالُ الدُّجَى فِينَا  
تُخَاطِبُ الْمَيْتَ كَيْ يَحْيَا بِأَيْدِينَا  
وَعَاشَ نُورُكَ فِي الظُّلْمَاءِ يَهْدِينَا  
لِطَهْرِ رُوحِكَ فِي خُلْدِ النَّبِيِّينَا

يَا عَاشِقَ الْحَرْفِ، أَشْبَاهُ مَرَامِينَا  
نُعَانِقُ الرُّوحَ، تُصْفِي بَيْنَنَا أَلْقَا  
تُرْتَلُ الْوَصْلَ أَيَا فِي جَوَانِحِنَا  
وَتَعْبُرُ الْأَرْضَ وَالتَّارِيخَ فِي وَهَجِ  
يَا فَاتِحَ الْبَابِ فَيْضًا مِنْ عُرُوبِنَا  
صَبْرَتْ حَتَّى مَلَكْتَ النُّجْمَ مُؤْتَلِقًا  
وَطَفَّتَ بَيْنَ رِيَاضِ الشَّعْرِ مُنْتَقِيًا  
تُعَازِلُ الْقَوْلَ كَيْ يُعْطَى مَقَادَتُهُ  
وَتَبْعَتْ التُّورَ فِي الْغَابَاتِ مُظْلِمَةً  
حَتَّى عَرَسَتْ بِأَرْضِ اللَّفْظِ أَجْبَحَةً  
تُدَاعِبُ الشَّمْسَ، تَقْفُو فِي أَشْعَتِهَا  
إِلْهَامُكَ الْعَذْبُ نُورٌ فِي مَلَامِحِهِ  
يَا سَاحِرَ الْحَرْفِ، جِنُّ أَنْتَ أَمْ بَشْرٌ؟  
دَهَبَتْ بَيْنَ رَمَادِ الْأَرْضِ مُنْطَفَأً  
سَلَامٌ صَبُّ يَزْفُ الشَّعْرُ دَعْوَتُهُ

شعر : مصطفى السواحلي

obeikandi.com

## مقدمة

فِدَى لَأَبِي الْفَتْحِ الْأَفَاطِلِ إِنَّهُ

بِيرَ عَلَيْهِمْ أَنْ أَرَمَ وَإِنْ قَالَا

إِذَا جَرَتِ الْأَدَابُ جَاءَ أَمَامَهَا

قَرِيحًا وَجَاءَ الطَّالِبُونَ إِفَالَا

الشريف الرضي

obeikandi.com

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### المقدمة

الله أحمدُ على أن حَبَّبَ إليَّ العربية، وجبلني على الشغف بلغة خير البرية، وعصمني من زيف المُستشرقين وزَيغِ المُستغربين الذي لم يُجِدْ علينا إلا التسوُّل من الأعجمين، والتوسُّل إلى الأعداء المُخادعين.

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

وأشهد أن لا إله إلا الله شهادة تَعْنُو لجلالها السماوات وما أَظَلَّتْ، وتنوء بحملها الأرضون وما أَقَلَّتْ.

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، خير ولد عدنان، وخير من أفصح فآبان، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه اللُّسْنِ المقاويل، الصَّيْدِ البهاليل، الذين أدوا حُجَّةَ الله البالغة بسلاح البيان، ورفعوا راية الإسلام بسنان اللسان.

أما بعد...

فهذا بحث مشوق مشوك:

أما كونه مشوقاً:

\* فلأنه يرتاد حقلاً لم تطأه - بهذه الصورة - قدمان، ويفترع أباكراً لم يطمثهنَّ - فيما أعلم - إنسان، فقد عُرف أبو الفتح عثمان بن جنّي (ت 392 هـ) عالماً من علماء النحو والتصريف وأصول اللغة، حيث بدأ فيها جميعاً المتقدمين وأعيان المتأخرين، وافتتح منها أبواباً مُحجَّبة، وأظهر منها معاني مُغَيَّبة، وأنفق عمره يمارس اللغة ممارسة الرائض الحاذق، حتى دنا له قَصِيئُها، ودان له عَصِيئُها، وأتى حقاً - وإن كان الأخير زمانه - بما لم تستطعه

الأوائل، ونُسي أبو الفتح أديباً وناقداً له من البحوث الرائدة والنظرات الناقدة ما يضمه إلى صفوف كبار النقاد.

\* ولأنه يرسم صورة مُشرقة من صور العناق الحميم بين جناحي اللغة الأدبي والعلمي، فقد فرقت طريقة الدرس الحديثة بين الشق العلمي للغة ممثلاً في نحوها وصرفها وأصواتها وفقهها، والشق الأدبي ممثلاً في أدبها وبلاغتها، فسار الدرس في خطين متوازيين لا يلتقيان، بينهما برزخ لا يبيغان، لكن ابن جنّي استطاع أن يتخطى هذا البرزخ، وأن يكتب اللغة بلسان الأدب، وأن يفهم الشعر بوحي من الفقه اللغوي العميق، فكان هذا المزيج الرائع الذي يجمع بين دقة العلم وحلاوة الفن، والذي يندد عملياً بهذه الوضعية الجائرة التي ابتدعناها ثم أتبعناها.

\* ولأنه يجلي إحدى أهم الصفحات في حديث النقاد عن شاعر العربية الأكبر أبي الطيّب أحمد بن الحسين المُنبّي، الذي ملأ الدنيا وشغل الناس، والذي نام ملء جفونه عن شوارده، وأسهر الخلق، يحاولون تقييد أوابده وترويض شوارده، فكانت المعارك الحامية التي طارت فيها هامات، وعلت فيها رايات، وقد كان شرحا ابن جنّي لديوان الشاعر مركز دائرة المعارك، فقال ابن جنّي أكبر نصيب من آثار تلك النار المتأججة، التي ترمى بشرر كالفقر.

**وأما كونه مشوكاً:**

\* فلأن الباحث فيه يتعين عليه أن ينتقر لمحات ابن جنّي من ثنايا تراثه الضخم، وأن يُغامر بالسباحة في محيط اللغة، تتقاذفه أمواجها، وتُعنيه أثابجها، في محاولة مستميتة لاقتناص تلك الدرر من القاع السحيق، ثم تبدأ محاولة التأليف بين تلك اللمحات المتناظرة، ثم محاولة الحكم عليها من خلال ميزان نقدي فاهم، وهو عمل من دونه خرط القتاد، ولا يقدره إلا من عانى مشقته وقطع شقته.

\* ولأن طبيعة البحث ألجأت الباحث إلى التعامل مع مخطوطاتٍ عتيقة لم ترَ النور بعد، في محاولة لبعث الحياة في تلك الجثث المحنطة بداخل القبور، والتي تكتب بلسان الحال أبلغ قصيدة في رثاء مجد أثله الآباء وضيعة الأبناء.

\* ولأنّ مصادر البحث المطبوعة يعاني أكثرها من الغربة، إنّ في مكتبات الرسائل الجامعية يجلّها التراب البغيض، وإنّ بالعيش في أقطار بعيدة المزار، وإنّ بطاعتها في زمانٍ قديم يجعل الوصول إليها أمرًا متعذرًا، فكان لزامًا على الباحث أن يتخطّى كلّ هذه الحواجز الزمانيّة والمكانيّة، وأن يتحمّل المزيد من لأواء السفر وعناء السهر بحثًا عن الحقيقة.

\* ولأنّ بعض الكتب في هذا الموضوع تجأ بالشكوى إلى ربّها، بسبب ما أصابها من تشويه جارح واعتداء أثير على حرمة النصّ فيما سُمّي تحقيقًا، وهو تلفيق وتحريف واجتراح لأسس هذا العلم الشريف، فكان لزامًا على الباحث أن يأخذ منها بقدر، وأن يتعامل معها بحذر، وأن ينظر إليها نظرة المحقّق المدقّق الذي تراوحه أطراف الاحتمال، وينأى عنه اليقين كما نأى العيوق. تلك بعض العقبات الكأداء التي عانى منها الباحث، حيث اكتنفته ظلماتها الحالكة وحيرته غاباتها المتشابكة، فكنت كفرس المتنبّي الذي

تَعَوَّدَ أَنْ يُعْبَرَ فِي السَّرَايَا وَيَدْخُلَ مِنْ قَتَامٍ فِي قَتَامٍ

- لهذه الأشواق والأشواك جميعها، وقع اختياري على هذا الموضوع الجلل؛ ليكون حقلًا خصبًا لهذا البحث على الرغم مما يكتنفه من صعوباتٍ بالغة، لكنّ لذّة البحث وحلاوة النُجْح والوصول تجعل العذاب عذبًا، والأجاج زلالًا، وتجعل من هذا الجهد جهادًا في سبيل كشف اللثام عن تلك الصفحة المطويّة من تاريخ أدبنا العربي، ومن يخطب الحسنة لم يُغلها المهْر.

أمّا عن منهجي في البحث فهو المنهج المتكامل، لأنّي جمعت فيه بين المنهج التاريخي في التعامل مع الأخبار والحكم على المرويّات، والمنهج الوصفيّ في الحديث عن الكتب ومناهج مؤلّفيها وما تنطوي عليه من مزايا وعيوب، والمنهج الفنيّ في تدوُّق النصوص والموازنة بينها والرؤية الفنيّة لما طرقته من قضايا النقد الأدبيّ.

وأما عن خطة البحث فقد اقتضت طبيعته أن يخرج في أربعة فصول يسبقها تمهيد وتعقبها خاتمة:

في التمهيد: تناولتُ عصر الناقد، مجليًا حقيقة الموقف السياسيّ وملامح المجتمع وآفاق العلم، لما لها من أصداء مُرتبة على النقد والناقد معًا.

## ثم كانت الفصول الأربعة:

\* **الفصل الأول:** وعنوانه: (ابن جني ومكوّنات شخصيته النقدية)؛ وقد جاء في مبحثين، تناول أولهما: حياة الناقد من المهد إلى اللحد، بدءاً بمولده وما أثير حوله، ومروراً بصحبته لأبي عليّ الفارسي، وانطلاقاً نحو شمائله وآفاقه الفكرية؛ عقدية وسياسية وفقهية ونحوية، وجلاءً للملامح أسلوبه الفريد، وانتهاءً بمنيته التي هي غاية كلّ حيّ.

وتناول المبحث الثاني: الحديث عن مكوّنات شخصيته الناقد مثلة في: الأصل الرومي، والتبحر في علوم العربية، والفكر الاعتزالي، ومجلس سيف الدولة الحمداني، وصحبة المتنبّي، والشاعرية، مع اختلاف نصيب كلّ منها في تكوين وتلوين شخصيته الناقد.

\* **الفصل الثاني:** وعنوانه: (تراث ابن جني النقدي)؛ وقد وقع في مبحثين أيضاً، تناول أولها: شروحه للشعر، فبيّنت موقع ابن جني من سلسلة شراح الشعر، ثم تناولت ما وجد من شروحه للشعر وهي: شرحه لديوان المتنبّي، وشرحه لمشكل الحماسة، وشرحه لأشعار الهدليين، وشرحه لأرجوزة أبي نواس.. وقد أفضت في الحديث عن كلّ شرح فوصفته، وبيّنت سبب اختيار ابن جني لموضوعه، ومنهج الناقد في كلّ شرح، وما وراء هذا المنهج من مزايا وعيوب، وما للشرح من أصداً في الشروح اللاحقة.

وتناول المبحث الثاني: كتبه اللغوية؛ حيث اخترت أعظم خمسة من كتبه هي: المنصف، وسر صناعة الإعراب، والخصائص، والمحتسب، والخطاريات.. وهي أجل كتبه، وأصدقها تمثيلاً لشخصيته، وأحفلها باللمحات النقدية، فبيّنت منهجه في عرض المادة النقدية بها، حيث تأتي مزوجة بالدراسة اللغوية، وكيف أنتقر تلك اللمحات حتى تسلك في خيط، أو تنظم في عقد.

\* **الفصل الثالث:** وعنوانه: (قضايا النقد الأدبي في فكر ابن جني)؛ حيث نظمت تلك الشذرات في عقد القضايا النقدية، فانتظمت لي هذه القضايا: الرواية وتحقيق النصوص، السلامة اللغوية، موسيقى الشعر، القديم والجديد، اللفظ والمعنى، السرقات الأدبية، الفن

والأخلاق، وملامح البناء الداخلي للقصيدة، وقد جليّت في كل قضية رأي الناقد إلى جوار آراء النقاد الآخرين، ثم بينت رؤيتي الخاصة التي لا تُبالي بمخالفة ابن جنّي أو مخالفته، وإنما تهدف إلى التوازن بين الانحباس في أفاص التراث وإغماض العين عن كل جديد، وبين التمرّد على القيم التراثية والطواف حول القيم الوافدة.

**\* الفصل الرابع: وعنوانه: (ابن جنّي بين ناقديه)؛** قُمت فيه بالموازنة بين آراء ابن جنّي في شعر المُتنبّي وآراء من ألفوا كتبًا في الرّدّ عليه؛ فكانوا ثمانية هم: سعد بن محمد بن علي الأزدي الوحيد (ت 385 هـ)؛ الذي وضع حاشية على الفسر، وأبو القاسم عبد الله بن عبد الرحمن الأصفهاني (ت بعد 410 هـ)؛ الذي قصر كتابه (الواضح في مشكلات شعر المُتنبّي) على نقد ابن جنّي، وأبو الفضل أحمد بن محمد العروزي (ت 416 هـ)؛ الذي أملى أمالي في الاستدراك على ابن جنّي، وأبو الحسن علي بن عيسى الربيعي (ت 420 هـ)؛ الذي ألف كتاب (التنبيه على خطأ ابن جنّي في شعر المُتنبّي)، والشريف المرتضى (ت 436 هـ) صاحب كتاب (المُنصف في تتبع أبيات المعاني التي تكلم عليها ابن جنّي)، وابن فورجة البروجرديّ (ت بعد 455 هـ)؛ الذي ألف أجل وأشهر كتابين في الرّدّ على ابن جنّي؛ هما: (التجني على ابن جنّي، والفتح على أبي الفتح)، وأبو سهل محمد بن الحسن الزوزني (ت قبيل 467 هـ) صاحب كتاب (قشر الفسر)، وأبو العباس أحمد بن علي بن الحسن بن معقل الوحيد المهلبّي (ت 644 هـ)؛ الذي ألف كتاب (المأخذ على شراح ديوان المُتنبّي)، وقد وصفت كتب هؤلاء جميعًا، سواء أكانت مطبوعة أم مخطوطة أم نصوصًا مجمعة، واستلهمت ملامح مناهج أصحابها، ووازننت بين آرائهم ورأي ابن جنّي مصطنعًا الإنصاف ما استطعت إليه سبيلًا، عارضًا وجهة نظري التي أملاها عليّ تذوقتي للنص، ولم يملها عليّ شخص، لأنني لم أبال بمن أحالف أو أخالف، فكلُّ إنسان يؤخذ ويُرَدُّ من قوله.

ثم جاءت الخاتمة: التي تضمّنت أهم نتائج البحث وتوصيات الباحث.

وقد توخَّيتُ في بحثي هذا تخريج الآيات القرآنيَّة والأحاديث النبويَّة وجُلَّ أبيات الشعر من مصادرها الأصيلَّة، فإنَّ ذكرت شيئاً من شعر المُتنبِّي دون شرح خرَّجته من طبعة الدكتور عبد الوهاب عزام؛ التي هي أوفى الطبعات وأكملها، وإن رجعتُ إلى شيءٍ من الشرح أحلتُ على ذلك الشرح في التخريج.

كما توخَّيتُ الترجمة لكلِّ الأعلام الذين دارت الدراسة حول بعض جهودهم، تاركاً من سواهم ممن يرد ذكرهم عرضاً أثناء الدراسة، وتوخَّيتُ كذلك تفسير الكلمات الغامضة - في نظري - معتمداً على لسان العرب، كلُّ كلمة في مادَّتها، ولذا لم أنصَّ على ذلك، فإنَّ رجعتُ إلى غير اللسان نصَّصتُ على مرجعي في التفسير.

وبعد...

فهذا الجهد - على ضخامته - هو جهد المقلِّ، لكنَّ يشهد الله أنِّي لم أدخر وسعاً، ولم أخلد إلى الراحة في سبيل بحثي هذا، فكم من ليلٍ عليّ - وأنا على مائدة البحث - قد عَسَّعَسَ، وكم من صُبحٍ - والمرجع بين يديّ - قد تنفَّسَ، وكلُّ مطالع لبحثي هذا يدرك طول الشُّقة التي قطعْتُها، وضخامة المشقَّة التي تحمَّلتُها، لكنَّ سبيل الباحث هو استعذاب العذاب، وعدم الرضا من الغنيمة بالإياب.

فإنَّ كنتُ قد وفَّقتُ في بحثي هذا فلله الحمدُ والمنَّة، وإن كانت الأخرى فحسبي الأجر الواحد لمن اجتهد فأخطأ، فالكمال لله وحده، وكلُّ بني آدم خطَّاء:

وَمَنْ ذَا الَّذِي تُرْضَى سَجَايَاهُ كُلُّهَا      كَفَى الْمَرْءُ بُبْلًا أَنْ تُعَدَّ مَعَايِبُهُ

والله أسأل أن ينال البحث القبول إنَّه خيرٌ مأمول وأكرمُ مسؤل.

﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: 88]

مصطفى محمد رزق السواحلي

التمهيد

---

obeikandi.com

## (عصر الناقد)

مهها تباينت آراء المؤرخين حول لتاريخ ميلاد ابن جنّي وزمان وفاته، فلن تجاوز به حدود القرن الرابع الهجريّ، ذلك القرن الأغر المحجّل، الذي حظي فيه العُلم بما لم يحظ به من قبل، فكان لزامًا علينا أن نُعطي لمحة تضيء جوانب هذا العصر الذي غدّي الناقد بلبانه، وعاش بين أحضانه، وكتب سطور علمه وآيات مجده على صفحته، فازدادت وضاعة وإشراقًا.

فمن المؤكّد أنّ العالم وليد مخاضات معينة، ورضيع لبان خاصة تؤثّر دون شكّ في تكوين عقله وتلوين فكره، ناهيك عن أعاصير السياسة ولحمة المجتمع وهيكل الثقافة، فإنّ الناقد أو الأديب ليس نبتًا شيطانيًا وُلد هَمَلًا، ولا صخرة صمّاء لا تتأثر بما حولها، وإنّما هو كيانٌ من لحم ودم، من عقلٍ ووجدان، يتأثر بما يدور حوله إيجابًا وسلبًا.

نعم؛ نحن لا نغلو في حقيقة هذا التأثير والتأثير غلّو أصحاب المناهج الطبيعيّة في درس الأدب من أمثال (سنت بيف، وتين، وبرونتيير)، الذين يرون أنّ الأديب وكل آثاره ثمرة قوانين حتميّة عملت في الماضي، وتعمل في الحاضر، وستظل تعمل في المستقبل، فهو يصدر عنها صدورًا حتميًّا لا مفرّ منه ولا خلاص، إذ تشكّله وتكيّفه حسب مشيئتها، وحسب ما تحمل في تضاعيفها من جبرٍ وإلزام... وقد حصروا تلك المؤثرات في: الجنس والزمان والمكان.<sup>(1)</sup>

ذلك أنّ هذه النظرية تحوّل الأديب إلى جلمود صخر حطّ السيل من علّ، تشكّله عوامل التعرية كيفما تشاء، أو إلى مادة كيميائية تتفاعل مع غيرها تفاعلاً محسوم النتيجة محتوم الأثر بلا فكّك، وذلك من شأنه أن يقتل الإنسان في الإنسان، وأنّ يدمّر العبقرية الخاصّة التي لا تخضع لتلك القوانين المحسوبة، فالعبقريّة الشخصية والفضاظة الذاتية قد تعلق بصاحبها فوق

(1) انظر: البحث الأدبي؛ د. شوقي ضيف، الطبعة السادسة، دار المعارف، ص 85، 86.

مواضعات الجنس والزمان والمكان، وتطير به إلى آفاق رحبة من الإبداع المحلّق والتحليق المبدع قاهرة كلّ هذه المواضعات الثابتة.

وعلى الرغم من هذا فإنّ للزمن دورًا لا يُجحد في صبغ نفس الأديب بأصباغٍ معينة، تحكى سمة عصره نضارة أو شحوبًا، وتعكس ما فيه من جمالٍ رائع أو قبحٍ فاجع.

وحدثنا عن العصر لن يمتدّ بنا إلى منعطفات التاريخ وزواياه الدقيقة التي تهّم المؤرخ المدقّق، وحسبنا أن نرسم صورة لهذا العصر سياسيًا واجتماعيًا وثقافيًا بحيث تجعل المساحة الزمنية أكثر إضاءة وإشراقًا دون إيجازٍ مُخلٍّ أو إطنابٍ مُجَلِّ.

### \* الحالة السياسيّة:

شهد القرن الرابع الهجريّ انتكاسة سياسيّة لم يسبق لها مثيل، فبعد أن كان العالم الإسلاميّ دولةً موحّدة مرهوبة الجناح، تُناطح الجوزاء، وترتدي ثياب العزّة القعساء، دارت عليها عوادي الزمان ونواب الحداث، فسقطت فريسة للأهواء والعصبيات، وارتكست طوال هذا القرن في حمأة الحروب الداخلية، فانفرط عقد الدولة الإسلاميّة، وتمزّقت شَرِّ ممزق، حيث تغلّب كلّ أمير على جهة، ولم يبقَ للخليفة غير بغداد وما حولها، وليت هؤلاء الأمراء عاشوا على الوئام، بل ناصبت كلّ دولة أختها العداء، وصار بأسهم بينهم شديدًا، وجعل بعضهم يضرب رقاب بعض، حتى سُفكت الدماء الإسلاميّة مدرارًا ومغزّارًا ومكثّارًا، والخليفة العاجز لا حول له ولا قوة، فهو خليفة بالاسم، والحقيقة أنّه لا يلي أمر نفسه، وإنّما التُّرك أو الديلم يحركونهم كما تحرك قطع الشطرنج، يدلُّ على ذلك؛ أنّه لما جلس المعتزّ على سرير الخلافة قعد خواصّه وأحضره المنجّمين، وقالوا لهم: انظروا كم يعيش، وكم يبقى في الخلافة؟ وكان بالمجلس بعض الظرفاء، فقال: أنا أعرف من هؤلاء بمقدار عمره وخلافته، فقالوا له: فكم تقول إنّّه يعيش وإنّه يملك؟ فقال: مهما أراد التُّرك. فلم يبق بالمجلس إلا من ضحك.<sup>(1)</sup>

(1) الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلاميّة؛ لابن الطقطقي، ط. مطبعة الموسوعات بمصر، ص 220.

فإذا كان هذا حال المعتز (ت 255 هـ) وللخلافة بعض السلطان، فلا شك أن الطين قد زاد بلة، وأن الانهيار قد جاوز حزامه الطُّبَيِّين في القرن الذي نحن بصدده.

وإذا كان حال أمير المؤمنين يُعطى انطباعاً صحيحاً عن حال الدولة قوة أو انحلالاً، فحسبنا أن نلمح بإيجاز شديد إلى خلفاء المسلمين الثمانية الذين تعاقبوا على دولة الإسلام خلال القرن الرابع الهجري:<sup>(1)</sup>

(1) **المقتدر:** أبو الفضل جعفر بن المعتضد؛ وقد تولى من [295هـ: 320هـ]، وكان بدء خلافته وعمره ثلاث عشر سنة، وفي عهده اضطرب الحال، وزاد خطر القرامطة، حتى إنهم في عام (317هـ) ساروا إلى مكة يوم التروية، فنهبوا أموال الحجيج، وقتلوه في المسجد الحرام وقلعوا الحجر الأسود من الكعبة ونقلوه إلى هَجَرَ، وظل عندهم اثنين وعشرون عاماً، وطرحوا القتلى في بئر زمزم، ودفنوا الباقين في المسجد الحرام بغير غسل ولا كفن ولا صلى عليهم أحد، وظل هذا الفساد العريض حتى خرج عليه غلامه "مؤنس" بصحبة بعض الجند، فذبحوه بالسيف، وسلبوا ثيابه، وهملوا رأسه على رُمُحٍ وطافوا به، وبقي الخليفة مكشوف العورة حتى ستره بعض العامة بالحشيش، ثم حُقِرَ له بالموضع الذي هو فيه ودُفن.

(2) **الفاهر:** أبو منصور محمد بن المعتضد؛ وقد تولى من [320هـ: 322هـ]، وقد ولّاه خادمه مؤنس على ماض، لأنه كان يريد تولية ابن المقتدر، وفي عهده اضطرب الأمر، وبدأ البويهيون يسيطرون على أجزاء من بلاد فارس، والخليفة على كرسيه مثل الدمية، حتى هجم عليه غلمانه فوجدوه مخموراً فأخذوه وأودعوه السجن وسَمَلوا عينيه، وربما كانوا يُخرجونه ليتسوّل على باب جامع المنصور، ليصير مُثلة وعبرة.

(1) انظر في سيرهم جميعاً: الكامل في التاريخ؛ لابن الأثير، ط. دار صادر، من أول ج 8 إلى 9/417، البداية والنهاية؛ لابن كثير، ط. دار الحديث 1992م، 11/110 وما بعدها، تاريخ الخلفاء؛ للسيوطي، ط. دار الجليل؛ ص 440: 480، الفخري؛ ص 234: 260.

(3) **الراضي بالله:** أبو العباس أحمد بن المقتدر؛ تولى من [322هـ: 329هـ]، وقد كان محبوساً بأمر القاهر، فلما قُهرَ القاهر، أخرجوه من السجن وولّوه الخلافة، وفي عهده استفحل خطر القرامطة حتى إنهم اعترضوا الحجاج عام 323هـ عند القادسية، ومنعوا أهل العراق جميعاً من الحج، وواصل البويهيون انتصاراتهم فاستولوا على كرمان والأهواز وواسط وأصبهان، بل اجترأ الأمراء الصغار في عهده على لقب أمير المؤمنين، فتسمّى به عبد الرحمن بن محمد الأمويّ بالأندلس، والمهديّ بالقيروان، وظل على كرسيه حتى تُوفّي عام 329هـ.

(4) **المتقي بالله:** إبراهيم بن المقتدر؛ وقد تولى من [329هـ: 333هـ]، حيث بُويع بالخلافة بعد وفاة أخيه الراضي، ويبدو أنّه كان تقيّاً عابداً، لكنه لم يسيطر على مقاليد الأمور، إذ استفحل أمر القواد مثل: (ابن رائق، وبيجكم، وتوزون)، وقد اهتبل الأخير فرصة خروج المتقي إلى الرقة للقاء الإخشيد، فقبض عليه، وسمل عينيه، وأودعه السجن خمسة وعشرين عاماً حتى مات، وفي سمله يقول القاهر المسمول من قبل:

صِرْتُ وَإِبْرَاهِيمَ شَيْخِي عَمِّي      لَا بُدَّ لِلشَّيْخَيْنِ مِنْ مَصْدَرٍ  
مَا دَامَ تُوزُونُ لَهُ إِمْرَةً      مُطَاعَةً فَالْمَيْلُ فِي الْمَجْمَرِ

(5) **المستكفي بالله:** أبو القاسم عبد الله بن المكتفي؛ وقد تولى من [333هـ: 334هـ]، حيث بُويع بعد سمل المتقي، وفي عهده دخل البويهيون بغداد، ثم دخلوا قصره وسلطوا عليه عبيد بن جيرانه من على الكرسي، حتى طرحاه أرضاً ثم سمل ليلحق بسابقيه.

(6) **المطيع بالله:** أبو القاسم الفضل بن المقتدر؛ وقد تولى من [334: 363هـ]، وعلى الرغم من طول مدة خلافته، فقد ازداد أمر الخلافة إدباراً، ولم يبق له من الأمر شيء إلا كاتبٌ يُدير إقطاعه، ويحصل خِراجَه لا غير، وظلت الوزارة بيد البويهيين يستوزرون من شاءوا، حتى أصاب الفالج هذا الخليفة الدُّمية، وثقل لسانه، وتعذّرت حركته، فأعفى من منصبه.

(7) **الطائع:** أبو الفضل عبد الكريم بن المطيع؛ وقد تولى من [363: 381هـ]، وفي عهده استولى القرامطة على الكوفة، واحتدمت الصراعات بين البويهيين، حتى إنهم أنكروا عليه

حبس رجل من خواصّ بهاء الدولة، فقبضوا عليه وجرّوه من على كرسيّ الخلافة، وهو يستغيث في منظرٍ يجعل الولدان شيباً، رآه الشريف الرضيّ فسجّل مرارته في نونيته الرائعة: (1)

لَوَاعِجُ الشُّوقِ تُحْطِيبُهُمْ وَتُصَيِّبُنِي وَاللَّوْمُ فِي الْحُبِّ يَبْهَاهُمْ وَيُعْرِبُنِي

(8) القادر بالله: أبو العباس أحمد بن إسحاق المقتدر؛ وقد تولى من [381: 422هـ]، ويبدو أنّه كان على جانب من القوة والهيبة، حيث أذلّ الديلم، وأعاد للخلافة بعض هيبتها، فألقى الله هيبتة في القلوب، وقد أورد المؤرخون له شعراً عامراً بالتقوى والورع، وقد توفّي عام 422هـ، بعدما أمضى في الخلافة إحدى وأربعين سنة وثلاثة أشهر.

وهكذا توشّح هؤلاء الخلفاء بوشح الألقاب، وتواروا وراء مسوح الأسماء التي هم منها ومن تبعاتها وجلالتها براء، مما يقطع بوصول الأمة إلى الدرك الأسفل من الانحدار السياسي.

### \* الحالة الاجتماعية:

لم تكن الحالة الاجتماعية أقلّ سوءاً من الحالة السياسيّة، فلو أنّ المجتمع لحمّة واحدة متماسكة البنيان عامرة القلب والعقل بالإيمان والفكر لغيّرت فساد الحاكم، فإنّ الله لا يغيّر ما يقوم حتى يغيّروا بأنفسهم، وبإمكاننا أن نرصد الملامح الآتية للمجتمع:

(1) لم يعد المجتمع عربياً خالصاً كما كان في عهد بني أميّة، فقد كثر التّرك في المجتمع الإسلاميّ منذ استقدمهم المعتصم، واستفحل أمر الديلم منذ استولوا على بغداد عام 334هـ، وإذا كان الوثائم بعيداً بين العرب الخُلص فهو مع وجود هذه الأجناس أبعد من العيوق، ومما زاد الطين بلّة أنّ التهجين قد دقّ أبواب الخلفاء الذين راقتهم حسناوات الروم وجميلات الفرس، وبمحض المصادفة وجدت أمهات الخلفاء الثمانية كلّهن غير عربيات: فأُمّ المقتدر روميّة، تُدعى (غريب)؛ وقيل: شغب، وأمّ القاهر أم ولد تسمى (فتنة)، وأمّ الراضي أم ولد تسمى (ظلوم)، وأمّ المتقى أم ولد تسمى (خلوب)؛ وقيل: زهرة، وأمّ المستكفي أم ولد تسمى

(1) ديوان الشريف الرضيّ، ط. دار صادر: 2 / 244.

(أملح الناس)، وأمُّ المطيع أم ولد تسمى (شغلة)، وأمُّ الطائع أم ولد تسمى (هزار)؛ وقيل: عتب، وأمُّ القادر أم ولد تسمى (تمنى)؛ وقيل: دمنة.<sup>(1)</sup>

وكأنِّي بهؤلاء الأعجميات قد تسللن إلى كلِّ بيتٍ عربيٍّ فأصبح التوليد سمة معهودة بعد أن كان معرّة منقودة.

(2) اتسعت هُوّة الطبقيّة بين فئات الشعب؛ إذ زاد المترفون من الخلفاء والوزراء والقوَّاد ترفاً، فنهلوا من كأس النعيم وعلَّوا، واحتسوا من كئوس اللذة المترعة حتى الثمالة، وأنفقوا على ملاهي العيش وكماليات الحياة بلا حدود، وحسبنا ما رُوي: أنَّ المقتدر ختن في يومٍ خمسة من أولاده، فغرم على ختانهم ستمائة ألف دينار.<sup>(2)</sup>

بل يقول عنه ابن الطقطقي: «كان في داره أحد عشر ألف خادمٍ حصيّ من الروم والسودان، وكانت خزانة الجوهر في أيامه مُترعةً بالجواهر النفيسة، فمن جملتها الفص الياقوت الذي اشتراه الرشيد بثلاثمائة ألف دينار، والدُّرة اليتيمة التي كان وزنها ثلاثة مثاقيل، إلى غير ذلك من الجواهر النفيسة، ففرَّقها جميعه، وأتلفه في أيسر مدة».<sup>(3)</sup>

ويقول عنه ابن الأثير: «وكان جملة ما أخرجه من الأموال تبذيراً وتضييعاً في غير وجه نيفاً وسبعين ألف ألف دينار».<sup>(4)</sup>

وهي أرقام تُغني عن كلِّ عبارة، وتنطق بلسان الحساب معبّرة عن الإنفاق بلا حساب. وبجوار تلك الطبقة وُجِدَت طائفة من البائسين الذين عصَّهم الجوع بنابه، وخيَّم عليهم ليل الفقر المدقع الذي أُرْدف أعجازاً وناءً بكلِّ كل، وأبى أن ينجلي بنهارٍ يذوق فيه هؤلاء للنعيم طعماً، ولا غرو ففي أيام الفتن - وكلُّ أيامهم فتن - تلد فيه أشباح الجوع حرماناً مقيتاً

(1) انظر سيرهم وأسماء أمهاتهم في: تاريخ الخلفاء؛ للسيوطي؛ ص 440 : 480.

(2) تاريخ الخلفاء؛ ص 242.

(3) الفخري؛ ص 234.

(4) الكامل في التاريخ؛ لابن الأثير: 8 / 243.

يأخذ طوائف البائسين أخذًا وبيلاً، وحسبنا هذا الخبر عما أصاب أهل بغداد في زمن المطيع، «فقد اشتد الغلاء ببغداد حتى أكلوا الجيف والرّوث، وماتوا على الطُّرق، وأكلت الكلاب لحومهم، وبيع العقار بالرغفان، واشترى لمُعزّ الدولة كُرُّ دقيق بعشرين ألف درهم»<sup>(1)</sup>؛ ومن ثمّ كثر المُكذّبون من الساسانيين الذين احترقوا التسول احترافاً لهم "البديع" فنّ المقامة الرفيع.

(3) لم يعد المجتمع لحمّة دينية متماسكة، بل زادت الهوّة بين فتّي الفسّاق والنّسّاك، إذ وجد جماعة من أهل الفضل، ظلوا قابضين على دينهم كالقابض على الجمر، رغم شراسة الفتن، فزهّدوا الدنيا وزخارفها، وتركوا متاعها وراء ظهورهم، وأبوا الانخراط في سلك الضّالين اللاهين وراء متاعها الغرور، بل كان همّهم الطاعة، وطعامهم التسبيح، وأنفاسهم ذكر الله، ولذا كثر أدب المتصوفة والزّهاد في هذا العصر كثرة لافتة.

وإلى جوارهم وُجدَ المستهترون السائرون في طريق الغواية، الشاربون من كأس العريضة؛ فاحتسوا الخمر، وتعشّقوا الغلمان، وقضوا لياليهم الحمراء في الأديرة والحانات، يستمتعون إلى أغاني الفسّاق، ويشربون من الخمر حتى الثمالة، ويمارسون الجنس مع شياطين الإنس من الفتيات والغلمان المُختنّين على السواء، ومن يقرأ "الأغاني" أو "اليتيمة" أو غيرها من الكتب التي صوّرت العصر يدرك مدى الفاجعة المروّعة التي لم يسلم منها إلا من آوى إلى جبل الفضيلة، فعصمه الله من طوفان الفسوق.

### \* الحالة العلميّة:

كان من المتوقع مع هذا الفساد السياسيّ العريض، وذلك الصدع الاجتماعيّ الفاجع، أن تهوي الثقافة إلى الدرك الأسفل من الانحدار المريض، لكنّ الأمر جاء بالضد، فربّ ضارة نافعة، ومن السموم الناقعات دواء، إذ وجدنا الحركة العلميّة تصل إلى أوج الازدهار الذي لم يسبق له مثيل في تاريخ الإسلام حتى سمّاه "جرجي زيدان" بـ(عصر الإسلام الذهبي)؛ حيث يقول: «وأما عصر الإسلام الذهبيّ للعلم خاصة، فهو العصر الذي نحن بصدهه أو المائة

(1) تاريخ الخلفاء؛ للسيوطي، ص 461.

الثالثة للدولة العباسية، لأنه فيه نضجت العلوم على اختلاف موضوعاتها، وتمّ نموها، وظهرت الكتب الوافية في أكثرها، ولا سيّما في اللغة وعلومها، وفي التاريخ والجغرافيا والأدب والفلسفة»<sup>(1)</sup>.

فإنَّ صَحَّ هذا - وهو صحيح عندي - كان معناه أنَّه ليس من اللازم اللازم أن يصاحب المجد السياسيَّ مجدَّ علميٍّ، وأنَّ يقترن الانحدارُ السياسيُّ بانحدار ثقافيٍّ «فقد تسوء الحالة السياسية إلى حدٍّ ما وتزدهر بجانبها الحياة العلمية، وذلك لأنَّ الحياة السياسية إنَّما تحسُن بتحقيق العدل، ونشر الطمأنينة بين الناس، ومع هذا فقد يحمل الظلم كثيراً من عظماء الرجال وذوي العقول الراجحة على أن يفرُّوا من العمل السياسي إلى العمل العلمي، لأنَّهم يجدون العمل السياسي يُعَرِّضهم لمصادرة أموالهم، وأحياناً إلى إزهاق أرواحهم، على حين أنَّ العمل العلميَّ يحيطهم بجوٍّ خاصٍّ هادئٍ مطمئن، ولو كان الجو العام مائجاً مضطرباً»<sup>(2)</sup>.

ولذلك وجدنا جرائم التشرذم والضياع الناخرة في عظام العالم الإسلامي حتى النخاع قد استحالت مُحْصَبَاتٍ قويَّة لهذه الدول الناشئة التي تطمع كلُّ إمارة منها أن تُناطح العاصمة بغداد، بل تتمنَّى أن تستلب بساط المجد العلميَّ من تحت أقدام البغداديين، ولذا وجدنا الأمراء يغدقون على العلماء بلا حدود، لأنَّ ذِكر العلماء هو الباقي، فإذا ما نيط باسمه اسم الأمير كُتِبَ للأمير الخلود، ومن هنا لم يبخل الأمراء على العلماء بهالٍ، لأنَّهم يعتقدون أنَّ المال مَهْرٌ للمجد، وشتان بين مالٍ زائلٍ ومجد خالدٍ.

يدلُّنا على ذلك هذا الخبر الهام الذي رواه الصوفيُّ في أوراقه، «فقد كان الصوفيُّ من المقرَّبين إلى (بجكم)؛ وهو تركيٌّ لا يحسُن العربية حتى إنَّه كان يقول: أخاف أن أتكلَّم العربية فأخطئ في لفظي، والخطأ من الرئيس قبيح. فاستدعى الصوفيُّ يوماً وقال له: إنَّ أصحاب الأخبار

(1) تاريخ آداب اللغة العربية؛ جرجي زيدان، ط. دار الهلال: 2/ 224.

(2) ظهر الإسلام؛ أحمد أمين، ط. النهضة المصرية، 1978م: 1/ 96.

رفعوا إليّ أنّي لما طلبتك من المسجد قال الناس: أعجّلّه الأمير، ولم يتم مجلسنا، أفتراه يقرأ عليه شعراً أو نحواً أو يسمع من الحديث؟! وقد ذهب عليهم أمرى، أنا إنسان - وإن كنت لا أحسن العلوم والآداب - أحبُّ ألا يكون في الأرض أديب ولا عالم ولا رأس في صناعة إلا كان في جنبي، وتحت اصطناعي، وبين يدي، لا يفارقني»<sup>(1)</sup>.

فالقائد بجكم - على عجمته - يتمنى تجريد الأرض قاطبة من العلماء، متطلعاً إلى اليوم الذي يتحول فيه مجلسه إلى كعبة، العلماء زوّارها، والأدباء مسبّحون بحمدها، والكتّاب دائرون في فلکها مهما كلفهم ذلك من مال.

ومن ثمّ سمعنا عن العطايا الجزيلة التي نالها الشعراء والعلماء والتي لم نسمع بمثلها من قبل، بل ربما لم تُدرّ يوماً بخيال أحدهم، وهي دون شكّ سوف تُذكي من جذوة العلم إن كانت كامنة تحت الرماد، وتزيدها توهجاً إن كان خابية الضوء، وتجعل نهر الإبداع يتدفّق على ألسنة الأقلام عذباً سلسلاً، وحسبنا من ذلك ما روي: أنّ المتنبّي لما أنشد سيف الدولة لاميته التي مطلعها:

أَجَابَ دَمْعِي وَمَا الدَّاعِي سِوَى طَلَلٍ      دَعَا فَلْبَاهُ قَبْلَ الرُّكْبِ وَالْإِبْلِ

وفيها:

أَقْلُ أَنْلُ أَقْطَعُ أَحْمِلُ عَلَّ سَلِّ أَعِدُّ      زِدْ هَشَّ بَشَّ تَفْضَلُ أَدْنِ سُرَّ صِلُ

فوقع سيف الدولة تحت أَقْلُ: أقلناك، وتحت أَنْلُ: يحمل إليه من الدراهم ما يُحِبُّ، وتحت أَقْطَعُ: أقطعناك ضيعة كذا بباب حلب، وتحت أَحْمِلُ: نحمل إليك الفرس الفلانية، وتحت عَلَّ: قد فعلنا، وتحت سَلِّ: قد فعلنا فاسأل، وتحت أَعِدُّ: أعدناك إلى حالك من حُسن رأينا، وتحت زِدْ: يزداد كذا وكذا، وتحت تَفْضَلُ: قد فعلنا، وتحت أَدْنِ: أدنيناك، وتحت سُرَّ: قد سررناك - قال أبو الفتح: قال أبو الطيّب: إنّها أردت من التسريرة فأمر له بجارية - وتحت

(1) أخبار الرازي والمتقي من كتاب «الأوراق» للصولي، ط. الصاوي؛ ص 194، 195.

صَلَّ: قد فعلنا. وكان بحضرة سيف الدولة شيخ يضحك منه يقال له المَعْقَلِيّ؛ حسد المتنبّي على ما أعطاه سيف الدولة فقال: يا مولاي؛ هلاً قلت له: لِمَا قال: هس بش: هس هس تحكي الضحك؟ لأنك قد فعلت له بما أراد فهلاً ضحكت؟ فضحك سيف الدولة منه، وقال: اذهب يا ملعون»<sup>(1)</sup>.

وعلاوة على هذا كانت المجالس الأدبية التي تحتضن العلم والثقافة تنعقد في شتّى أرجاء الدولة الإسلامية، فيخف إليها العلماء زُرافات ووحداً من كل صوب وحذب، حيث ينشد الشعراء ويتجادل المفكرون في الأدب والنقد واللغة والنحو والدّين والفلسفة، وأشهر تلك المجالس مجلس سيف الدولة الحمداني بحلب - والذي سوف نخصّه بكلمة مستقلة -، وهناك مجلس الوزير ابن سعدان (ت 375هـ)؛ والذي كان يضم لفيماً من الشعراء والأدباء والفلاسفة، فكان دوحه فينانة حافلة بأشهى الثمار، وكان مائدة رفيعة حافلة بما لذ وطاب من فنون العلم والأدب، وهو المجلس الذي أثمر لنا كتاب التوحيد الفريد «الإمتاع والمؤانسة»؛ الذي ضمّ سبعة وثلاثين مجلساً لهذه الكوكبة الرائعة، ظهر فيها أبو حيان كأنها يغرف من بحر يفيض ولا يغيض.

وفي مصر كان هناك مجلس الوزير جعفر بن الفضل بن الفرات المعروف بابن حنّزابة؛ الذي ظل يقود الحركة الفكرية في مصر قرابة عشرين عاماً، فخفّ العلماء إلى مجلسه من أمثال المسعودي صاحب «مروج الذهب»، والدارقطني صاحب «المسند»؛ الذي أنفق عليه ابن حنّزابة نفقة واسعة، يُروى: أنّه قبّل الوزارة حصراً لمجلساً للإمام البَغَوِي، فلما أصبح وزيراً فقّده، فكان يقول وقد افتقده: «من جاءني به أُعْثِيته»<sup>(2)</sup>.

(1) انظر: شرح الواحدي لديوان المتنبّي؛ ص 493، يتيمة الدهر: 1/ 147، معجز أحمد: 3/ 281، التبيان في شرح الديوان: 3/ 85، 86، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: 3/ 496. وقوله «أقلناك»: كأنه يعفوها عن غلاظة قول المتنبّي في قصيدته السابقة لها:

واحرّ قلباه ممّن قلبه شبم      ومّن بجسمي وحالي عنده سقم

(2) وفيات الأعيان: 1/ 347، 3/ 298، معجم الأدباء: 2/ 376 وما بعدها.

وأخيرًا؛ فقد كان من عوامل تنمية الثقافة في ذلك العصر دور العلم العظيمة التي حوت من نفائس المخطوطات ما لا مثيل له، مما يشجّع العلماء على البحث المُتَقَبِّب بين أكّداس الكتب، ويعبّد طريق العلم أمام الشُّدّة فلا تحبّط نفوسهم من وعورة الطريق.

ففي بغداد كانت هناك دار "سابور بن أردشير"؛ التي أسست عام 383هـ، وقد اشترى لها أول إنشائها عشرة آلاف وأربعمائة مجلد، كان معظمها بخط أصحابها أو من الكتب الموثقة التي امتلكها علماء ثقات مشهورون،<sup>(1)</sup> وهي التي زارها أبو العلاء المعرّي وأشار إليها في قصيدته التي مطلعها:

مَعَانِي اللّوَى مِنْ شَخْصِكَ الْيَوْمَ أَطْلالُ      وَفِي النَّوْمِ مَعْنَى مِنْ خَيْالِكَ مِحْلالُ

حيث يقول:

وَعَنَّتْ لَنَا فِي دَارِ سَابُورَ قَيْنَةَ      مِنْ الْوُرُقِ مِطْرَابُ الْأَصَالِ مِيهالُ<sup>(2)</sup>

وفي شيراز بنى عضد الدولة دارًا لم يُرَ مثلها، وجعل بها خزانة كتب لم يبق كتاب صُنّف في وقته من أنواع العلوم كلها إلا وحصله فيها.<sup>(3)</sup>

وفي الرّيّ كانت للصاحب بن عبّاد دار كتب عظيمة بدليل قوله معتذرًا عن إجابة دعوة نصر بن نوح الساماني: «... ثم كيف لي بحمل أموالي مع كثرة أثقال، وعندني من كتب العلم خاصة ما يُحمل على أربعمئة جمل أو أكثر».<sup>(4)</sup>

وفي مصر كانت هناك خزانة العزيز بالله الفاطميّ؛ والتي حوت ما يزيد على مائة ألف مجلد يقوم عليها أبو القاسم الشابشتي صاحب «الديارات»، وكان بها أكثر من ثلاثين نسخة من

(1) المنتظم؛ لابن الجوزي: 366 / 14، البداية والنهاية: 334 / 11، تاريخ التمدن الإسلامي: 229 / 3.

(2) شروح سقط الزند: 1239 / 3. وميهال: من الوهل؛ وهو الفزع، كأن تلك الحمايم تفزع من الإنس.

(3) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص 499.

(4) معجم الأدباء: 262 / 2.

كتاب العين، وأكثر من عشرين نسخة من تاريخ الطبري، ومائة نسخة من الجمهرة لابن دريد، وما زال الخليفة يُعنى بها حتى باتت من عجائب الدنيا<sup>(1)</sup>

وفي الأندلس كانت هناك مكتبة الحُكَم بن عبد الرحمن الناصر الأمويّ، التي حوت أربعمئة ألف كتاب، كانت فهارسها في أربع وأربعين كراسة، في كل كراسة عشرون ورقة، وحسبك أنّه دفع لأبي الفرج الأصفهانيّ ألف دينار ذهباً ليعث له بنسخة من كتاب «الأغاني» قبل إخراجهِ إلى بني العباس.<sup>(2)</sup>

كلُّ هذا إنّما يدل على أنّ جذوة الثقافة ظلّت مُتقدّمة لكل مقتبس، وأنّ نورها الوهّاج ظلّ يُضيء جنبات المعمورة، وأنّ شجرة العلم حظيت بعناية ورعاية فائقة حتى آتت أكلها كلّ حينٍ بإذن ربها، فلا نعجب إذا رأينا هذا القرن يجمع كوكبة لامعة من خير المؤلّفين في كلّ العلوم، نذكر بعض أسماء نوابغ هذا القرن في مجال اللغة العربية وآدابها:

ففي اللغة نجد: ابن دريد (ت 321هـ)، وأبا منصور الأزهريّ (ت 370هـ)، وابن فارس (ت 390هـ)، والجوهريّ (ت 398هـ) وغيرهم.

وفي النحو والصرف نجد: الزّجاج (ت 311هـ)، وابن درستويه (ت 347هـ)، والسيراقيّ (ت 368هـ)، وأبا عليّ الفارسيّ (ت 377هـ)، وابن جنّيّ (ت 392هـ) وغيرهم.

وفي تاريخ الأدب نجد: الصوليّ (ت 335هـ)، وأبا الفرج الأصفهانيّ (ت 356هـ)، وابن عبد ربه (ت 328هـ)، والثعالبيّ (ت 429هـ).

وفي الشعر نجد: المُتنبّيّ (ت 354هـ)، وأبا فراس الحمدانيّ (ت 357هـ)، وكُشّاجم (ت 360هـ)، والسريّ الرفاء (ت 362هـ)، وابن هانئ الأندلسيّ (ت 363هـ)، والشريف الرضيّ (ت 406هـ).

(1) النجوم الزاهرة: 205/4، تاريخ التمدن الإسلامي: 231/3.

(2) تاريخ ابن خلدون: 316/7.

وفي النثر الفني نجد: الصاحب بن عبّاد (ت 385هـ)، وابن العميد (ت 360هـ)، وبديع الزمان الهمداني (ت 398هـ)، وابن نباتة السعديّ (ت 405هـ)، وأبا حيّان التوحيديّ (ت 414هـ تقريباً).

وفي مجال البلاغة والنقد الأدبيّ نجد: قدامة بن جعفر (ت 337هـ)، والآمدي (ت 371هـ)، وأبا هلال العسكري (ت 395هـ)، والقاضي الجرجاني (ت 392هـ)، وابن وكيع التنبّيسي (ت 393هـ).

تلك بعض أسماء نجوم العلم التي لمعت في سماء القرن الرابع الهجريّ، كاتبة بأقلامها أروع آيات المجد والخلود لها ولعلومها.

obeikandi.com